الدرس الرابع والثلاثون

تفسير سورة القيامة: [١ : ٤]

سورة مكيّة عظيمة، لها ثلاثة مقاصد أساسية:

الأول: إثبات المعاد، وهو من أعظم ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله ومن أعظم ما اشتد إنكار المشركين له.

الثاني: توثيق القرآن وصونه وحفظه.

الثالث : طبيعة النفس الإنسانية

هذه المقاصد الثلاثة مبثوثة في السورة.

{لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)}

يقول الله تعالى في مستهلها: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } [القيامة : ١]: ومنها استمدت السورة اسمها ، فهي سورة القيامة ؛ لورود هذا اللفظ فيها، (لا أُقْسِمُ)، هذا التعبير كثيرًا ما يرد في القرآن: وقد اختلف المفسرون في توجيهه قال بعضهم: لأقسم، هي لام القسم، لكن الصواب أنها النافية وليست لام القسم، لأن لام القسم لا تدخل على فعل مستقبل إلا إذا أكد بالنون كقولك: لأكتبنَّ الدرس.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المُقسَم عليه إذا كان منتفيًا؛ جاز الإتيان بلام القسم لتأكيد النفي، والمنفي إنكارهم للبعث والنشور. وقال بعضهم زائدة للتأكيد.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

ومن الأقوال في توجيه مثل هذا الأسلوب: {لا أُقْسِمُ}، وهو قريب جدًا ويتمشّى مع الذوق العربي ، أن المراد : أن الأمر من الوضوح والبيان بمكان بحيث لا يحتاج إلى قسم ، فلا يحتاج الأمر إلى قسم؛ وهذا جارٍ على الألسنة، فالمعنى: أن الأمر لا يستدعي القسم بهذا الأمر المعظم ، بل هو من الوضوح والوثوق والوقوع والحصول بمكان لا يمتري فيه عاقل و أردفه بقوله {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة : ٢].

فكذلك: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}، أي: لا محوج للقسم بالنفس اللوامة ؛ فإن الأمر واضح جلي ولا ريب أن المراد واضح ، وهو أن الله تعالى أقسم بالقيامة وبالنفس اللوامة على إثبات المعاد ، ودومًا يكون المقسم به مناسبًا للسياق ..

فلمّا كان الحديث عن القيامة والبعث والنشور جعلها مقسمًا به فقال: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ }، ولما كان الحديث أيضًا سيرِدْ على طبيعة النفس الإنسانية أقسم بالنفس اللوامة.

سمي المعاد بالقيامة لثلاثة أسباب:

الأول: لأن الناس يقومون لرب العالمين ، قال الله عزّ وجلّ : { يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }[المطففين : ٦].

الثاني: لقيام الأشهاد ، قال الله تعالى : {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } [غافر : ٥١].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الثالث: لإقامة العدل ، قال تعالى : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ }[الأنبياء : ٤٧].

وكل هذه المعاني صحيحة ، وقد ذكرنا في مرات سابقة أن أسماء القيامة أسماء وأعلام ، فكل اسم من أسماء يوم القيامة التي تتجاوز الأربعين، بل قد بلغ بها بعض العلماء الثمانين، اسم ووصف : كالطامة والحاقة والصاخة والآزفة وغير ذلك.

قوله: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ }: النفس: هي ما يعتمل بين جوانحنا، ولها أوصاف ثلاثة في القرآن العظيم:

١- المطمئنة

٢- اللوامة

٣- الأمارة

ففي هذه السورة ذكر الله النفس اللوامة، وفي سورة الفجر قال: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } [الفجر : ٢٨]، وفي سورة يوسف قالت امرأة العزيز: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }[يوسف : ٥٣]، وهذه الأحوال تعتري الآدميين، فتكون نفس ابن آدم تارة أمّارة ، وتارة لوّامة ، وتارة مطمئنة، والحكم للغالب. فنفس الكافر والفاجر دومًا أمّارة تأمره بالسوء، فيستجيب لها ويسترسل معها: { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }، ونفس المؤمن الخالص الإيمان مطمئنة؛ قد صار هواها تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، فلا تأمره إلا بخير وتطمئن لذكر الله: { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }[الرعد : ٢٨].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

فيقال لها عند الاحتضار: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر : ٢٧].

وبين هاتين النفسين: نفس متأرجحة تتلوم على صاحبها في الخير والشر، وهذا أمر يقع

يقع التلوم للكافر كما قال الله عن المنافقين: {يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا} [النساء : ٧٣].

فهذا التلوّم حال تعتري النفس ، فإذا فاتها شيء من حظوظها تلوّمت على صاحبها، وقد يكون تلوّمها محمودًا وقد يكون مذمومًا. فالمؤمن قد يلوم نفسه كيف لم أحج هذا العام ؟! كيف لم اعتمر؟! كيف لكم أتصدق؟! لما لم أقل كذا؟! لم قلت كذا؟! فهو يلوم نفسه على فوات الخير. والفاجر قد يلوم نفسه على أضداد ذلك، بأن يقول مثلًا: كيف لم أساهم في هذه المساهمة الربوية ؟! كيف لم أذهب إلى مواطن الخنا والفجور لم لم أقل كذا ؟! فهذه هي النفس اللوّامة.

والنفس الواحدة قد تتقلب بين هذه الأحوال !. لكن الحكم للأغلب.

فالذي ينبغي للموفق أن يترحّل بنفسه من حالة النفس الأمّارة، والنفس اللوامة بالشرّ إلى أن النفس المطمئنة، فيصبح قلبه ثابتًا، راسخًا، مستبشرًا، متفائلاً، محسنًا الظن بالله عزّ وجلّ، معتقدًا له المثل الأعلى، فهذا إذا حل في القلب حلّت السكينة والطمأنينة، وآنس صاحبه بهجة الإيمان وبشاشته، ولكن يحتاج إلى مجاهدة

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

ولا يأتي دفعة واحدة، قال الله تعالى: { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت : ٦٩].

وهذا التقسيم الذي ذكرناه في النفس يتماشى أيضًا مع تقسيم القلوب، **فإن القلوب ثلاثة** : قلب حي ، وقلب ميت، وقلب مريض .

- **فالقلب الحي**: هو الموافق للنفس المطمئنة؛ لأنه ينبض بما خلق له من الإيمان بالله ، ومحبته، وخوفه، ورجائه، تلكم هي وظيفته .
- **القلب الميت** : هو القلب المتيبّس المتخشّب، الذي استحال إلى عضله فقط، ليس فيه مسرح لذكر الله تعالى والإيمان به، قد فرغ وخلا من نور الإيمان.
- **وبين هذين القلبين قلوب تجري في المضمار**، تارة يستقطبها القلب الحي، وتارة يستقطبها القلب الميت.

رَوى حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا) **أي** : كتتابع أعواد الحصير فهي فتن متلاحقة .. (تُعْرَضُ الفِتَنُ على القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ على قَلْبَيْنِ، على أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ ...) الصفا هو الرخام يعني: مثل الصفا رقةً ونعومةً و صلابة فذاك قلب المؤمن الخالص، (والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

مُجَخِّيًا ...) **يعني** : كالكأس مقلوباً ، الكأس إذا كان مقلوباً لا يُنتفع به مهما سكبت فيه الماء يسح يمنة ويسرة (لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا ...)[1].

فينبغي للعاقل أن يحدد موقعه في هذا المضمار ويتعرف على طبيعة نفسه؟! وقلبه؟! هل قلبه حي؟! أم دون ذلك؟! هل نفسه مُطمئنة؟! أم دون ذلك؟! ويعلم أن التزكية مشروع العمر: { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [٧] فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [٨] }، ماذا؟ { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [٩] وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [سورة الشمس].

{أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ [٣] } [سورة القيامة]

هذا سؤال إنكاري لجنس الإنسان المُنكر للبعث؛ فالله تعالى ينعى عليه نكرانه. يُخيل للمنكر أنه إذا مات وتحلل بدنه أو تفرّق في بطون السِباع، وحواصل الطير، وأجواف الحيتان، أنه لا يمكن أن يتم جمع عظامه!.

حتى إن أن أُبيَّ بن خلف، أتى رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم بعظم حائل، ففتَّه، ثم ذراه في الريح، ثم قال: يا محمد من يحيي هذا وهو رميم؟ قال: "والله يحييه، ثم يميته، ثم يُدخلك النار[2].

قوله: {بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ [٤] }[سورة القيامة]: **يعني** : بلى نجمع عظامه وفوق ذلك نُسوي بنانه، والبنان أطراف الأصابع، أخبر الله سبحانه وتعالى أنه سيجمع هذا المتفرق ، وهو سبحانه وبحمده يُبقي من ابن آدم عجب الذنب !

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٤٤).

(٢) تفسير الطبري: (٢٠/ ٥٥٤).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن ابن آدم يبلى ولا يبقى منه إلا عجب الذنب : (... وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٣].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ " وَقَالَ غَيْرُهُ: «مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ)[٤].

فهذا يدل على كمال قدرة الله عزّ وجلّ على إحياء العظام وهي رميم ، كيف وهو الذي خلقها أول مرة ، فالذي أنشأها أول مرة قادرعلى إعادتها ، بل هو أهون عليه كما هو مقتضى العقل: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧].

قال بعض المفسرين في معنى (نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ): أي نخلقه ونمسح أطراف أصابعه، فبدلاً من أنها متفاوتة نجعلها متماثلة: {نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ}.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٩٣٥)، ومسلم رقم (٢٩٥٥).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٣٤٨١)، ومسلم رقم (٢٧٥٦).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

والأقرب، والله أعلم، أن هذا البنان الذي يتميز به كل إنسان عن الآخر، أن الله تعالى يُعيده مع دِقته ولطافته كما كان، فكيف بجمع العظام! فجمع العظام من باب أولى.

ثم ذكر الله تعالى حقيقة حال هذا الانسان: {بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ }، [القيامة : ٥]، هذه طبيعة النفس الإنسانية الأمارة، أنها تريد أن تفجر فيما تستقبل من عمرها!.

وعبارات المفسرين في تفسير: {يَفْجُرَ أَمَامَهُ} متقاربة ، فمنها ما يدل على أن المُراد بالفجور: الكفر أي يريد أن يكفر، و أن يسترسل في الكفر، ومن عباراتهم ما تدل على طول الأمل أي: يَتَقَحَم في أبواب الشهوات، و يفعل ما تُمليه عليه نفسه الأمّارة.

وقيل: إن الفجور هو تعمد الكذب، فهو يعلم أن البعث حق لا بد منه، و أن الله لا يمكن أن يخلقه ثم يدعه، فهو يتعمد الكذب بإنكار البعث كل هذه معاني يُصّدقُ بعضها بعض.

وتفسير ذلك: {يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ } [القيامة : ٦] ، سؤال معاندٍ مُتكبر مستبعد.

وهذا من طبيعة المكذبين المُعاندين، الخروج عن محل النِزاع إلى أمور جانبيه، من جنس متى؟ و أين ؟ و كيف ؟!!، للتشاغل عن الموضوع الأساس.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الواجب أن تؤمن بالمعاد، و تُثبت أن الله تعالى لا يترك الإنسان سُدى، و ألا تُشوش و تشغب بـ أيّان؟ و كيف؟ ولمَ؟ من الأمور التي تتشبث بها؛ لرد الحق و مطله.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله